زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .

وخَصَّه بالسلام يوم يموت ؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة . وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حياً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ(١) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى ؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأتِ به ، وهو كافلها ومُتولّي أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رزْقاً لم يحمله إليها ، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها ، فقال لها : ﴿يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

وكان هذه أول بداية قانون : من أين لك هذا ؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .

وشاءتْ إرادة الله أن تنطقَ مريم بهذه المقولة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء .

---

(١) انتبذ : اعتزل ورمى نفسه بعيداً عن الناس . أي : أن مريم اعتزلت أهلها في مكان شرقي . [القاموس القويم ٢/٢٥١] .

وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .

وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا - عليه السلام - إلى فَضْل الله وسعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبى الله ، ولكن هناك قضايا فى النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها ؛ لذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدى ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه .

إذن : فمريم هى التى أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى ؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاَّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شيء حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها فى طعام لم يَأْتِ به أحد إليها ، وفى حَمْل زوجة زكريا وهى عاقر لا تلد .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ .. (١٦)﴾ [مريم]

الكتاب هو القرآن الكريم ، أى : اذكُر يا محمد فى كتاب الله الذى

أوحاه إليك مما تذكر قصة مـريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة فى سورة (آل عمران) لما تكلم الحـق ـ سبحانه وتعالى ـ عن نَذْر أمها لمـا فى بطنها لخدمة بيت المقـدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشـقة هذا العمل ، فلما وضعـتْها أنثى لم يوافق ظنّها إرادة الله ، ولم تستطع مـريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسـها لخدمتـه قيماً ، وديناً حملتْ نفـسها عليه حَـمْلاً ، حتى إنها هـجرتْ أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذى اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُن الناس .

ومريم هى ابنة عمران ، وقـد قال القرآن فى خطابها : ﴿ يَـٰأُخْتَ هَـٰرُونَ .. (٢٨) ﴾ [مـريم] ولذلك حـدث لَـبْسٌ عند كـثـيـر من الناس ، فظنوها أخت نبـى الله موسى بن عـمـران وأخت هارون أخى مـوسى عليهما السلام .

والحقيـقة أن هذه المسألة جاءتْ مـصادفة اتفقتْ فيهـا الأسماء ؛ لذلك لمـا ذهب بـعض الصـحـابة إلى اليـمن قـال لهـم أهلهـا : إنكم تقـولون : إن مـــريم هى أخت مـوسى وهارون ، مع أن بـين مـريم وعمران أبى موسى أحد عشر جيلاً !!

فقال رسـول الله ﷺ : « أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يـتفاءلون بذكر الأسماء خاصـة الأنبياء فيُسمّون على أسمـائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون »[1] .

حتى ذكـروا أنهم فى جنازة بعض العلماء سـار فيهـا أربعة آلاف

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحـه (٢١٣٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٥٥) من حديث المغيرة ابن شعبة ، قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس .

رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة ، فهى ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص فى قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفْرَدة بين نساء العالم بشىء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصى لن يتكرر فى واحدة أخرى من بنات حواء .

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرَّر فتأتى القصة دون تشخيص ، كما فى حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقْر داره . فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها فى الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة فى عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبى أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ [مريم]

﴿ انتبذتْ من أهلها .. (١٦) ﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشىء عنه أى أبعده ، فكأن أُنْسها لا بالأهل ، ولكن أُنْسها كان برب الأهل . والقرآن يقول : ﴿ من أهلها .. (١٦) ﴾ [مريم] ولم يقُلْ : من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبَّهم عندها وذهبت إلى هذا المكان .

﴿ مكانًا شرقيًّا (١٦) ﴾ [مريم] لكن شرقىّ أىّ شىء ؟ فكل مكان

يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهى - إذن - كلمة دائرة فى كل مكان . لكن هناك علَم بارز فى هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقى بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات ؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس(١) ، لأنها سِمَة النور المادىّ الذى يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون ، وللإنسان فى سَيْره نوران : نور مادىّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذى يظهر له الأشياء من حوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه فى مسائل القيم ، حتى لا يتخبَّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥)﴾ [النور] ثم يقول بعدها : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

أى : نور السماء الذى ينزل بالوحى لهداية الناس .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٦١/٥) : « إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شىء أفضل من سواها . حكاه الطبرى . وحُكى عن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم] . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة » .

الحجاب : هو الساتر الذى يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فما فائدة أنْ تتخذ بينها وبين أهلها ستْراً بعد أن ابتعدتْ عنهم ؟ نقول : انتبذتْ من أهلها مكاناً بعيداً ، هذا فى المكان ، إنما لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

والحجاب قد يكون حجاباً مُفْرداً فهو ساتر فقط ، وقد يكون حجاباً مستوراً بحجاب غيره ، فهو حجاب مُركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن الستائر من طبقتين ، إحداهما تستر الأخرى ، فيكون الحجاب نفسه مَسْتوراً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. (١٧) ﴾ [مريم]

كلمة الروح فى القرآن الكريم لها إطلاقات مُتعدّدة ، أولها الروح التى بها قوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح فى المادة دبَّتْ فيها الحياة والحسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

لكن ، هل هذه الحياة التى تسرى فى المادة بروح من الله هى الحياة المقصودة من خَلْق الله للخَلْق ؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحياة هى المقصودة فما أهونها ؛ لأن الإنسان قد يمرُّ بها ويموت بعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هى حياة قصيرة حقيرة هيِّنة ، هى أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذى كرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن

تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

﴿ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهى مُهدَّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها موت فهى فى الآخرة .

فإذا كان الخالق - تبارك وتعالى - جعل لك روحاً فى الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدَّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك فى الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فكيف يدعوهم لما يُحييهم ، ويُخاطبهم وهم أحياء ؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التى لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السِّرَّ الذى ينفخه فى المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة « روحاً » ، كذلك سمَّى القيم التى تحيا بها النفوس حياة سعيدة « روحاً » ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] أى : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملك الذى ينزل بالروح رُوحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] وهو جبريل عليه السلام .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا .. (١٧) ﴾ [مريم] أى : جبريل عليه السلام . ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً (١٧) ﴾ [مريم] معنى تمثّل : أى : ليست هذه حقيقته ، إنه تمثّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى ، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاَث ورُبَاع . فلماذا - إذن - جاء الملَك مريم في صورة بشرية ؟

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقى الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته . فلكل منهما قانونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولابُدَّ فى لقائهما أنْ يتصوّر الملَك فى صورة بشر ، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقّى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملكاً رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ﴾ [الأنعام] إذن . لا يمكن أن يلتقى الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب .

جاء جبريل - عليه السلام - إلى مريم فى صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأته على صورته الملائكية ﴿ فتمثّل لها بشراً .. (١٧) ﴾ [مريم] أى : من جنسها ﴿ سويّاً (١٧) ﴾ [مريم]

أى : سوىّ الخلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى فى بعض الناس .

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة ؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه فى الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن :

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾

فلم تُظهر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .

وقولها : ﴿ أَعُوذُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ أى : ألجأ وأعتصم بالله منك ؛ لأننى أخاف أنْ تفتك بى ، أو تعتدى علىَّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لى ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذى يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .

ولما خطب النبى ﷺ امرأة[1] ، وكانت على شىء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها - وكانت غِرَّة ساذجة - أن رسول الله ﷺ يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : « لقد استعذت بمعيذ ، الحقى بأهلك »[2] .

فقول مريم : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم] لأن المؤمن النقىّ هو الذى يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها

---

(١) جاء فى تاريخ الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (٣/١٢٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (٣/١٣٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

قالتْ : إنْ كنت تقياً فابتعد عنى ، واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تقياً مؤمناً أن يبتعد عنها رحمةً بها وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذى يحميها ويحرسها منه .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾

قال : ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] ولم يقلْ رسول الله ؛ لأن الربَّ هو المتولّى للتربية الذى يُحسنها ويصونها من الفساد ، فعطاء الربوبية عطاء مادىّ ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوى قِيَمى هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذى يتولاَّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافى .

وقوله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية ، فالهبة فى هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا فى قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن فى حالة مريم فهى أنثى بلا ذكر ، فهنا الهبة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : ﴿ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ أى مُنقًّى مُطهّر صافى الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم :

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(أنَّى) استفهام عن الكيفيات التى يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : ﴿يَمْسَسْنِى .. (٢٠)﴾ [مريم] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هى الزواج الشرعى الذى شرعه الله لعباده للتكاثر وحفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذا اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْباً عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ .. (٢٠)﴾ [مريم] لا فى الحلال ، ولا فى الحرام ، وأنا بذاتى ﴿لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] إذن : فمن أين لى بالغلام ؟

وكلمة : مسَّ جاءتْ فى القرآن للدلالة على الجماع ، كما فى قوله تعالى : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ .. (٢٣٦)﴾ [البقرة] فالمراد بالمسِّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : ﴿لامَسْتُمُ النِّسَاءَ .. (٤٣)﴾ [النساء] بأنه الجماع ؛ لأن القرآن أطلق المسَّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهى مُفَاعلة بين اثنين ، فهى من باب أوْلَى تعنى : جامعتم .

وقولها : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] البغىُّ : هى المرأة التى تبغى الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغىّ : التى تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : ﴿ بَغِيًّا (٢٠) ﴾ [مريم] مبالغة في البَغْي وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِيّ ولم تقُلْ باغية ؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة في هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩) ﴾ [مريم] أي : أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذي يملك التنفيذ ، فلِمَ التعجب إذن ؟

وهنا نجد بعض المتورِّكين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ) بالفتح في قصة زكريا وبالكسر في قصة مريم (كذلك) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة ؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التي تُفتح في خطاب المذكر ، وتُكسر في خطاب المؤنث .

وهنا أيضاً قال : (ربك) أي : الذي يتولى تربيتك ورعايتك ، والذي يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربَّى .

وقوله : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم] كما قال في مسألة البعث بعد الموت : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] فكلمة هيّن وأهْوَن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - لا تُؤخَذ على حقيقتها ؛ لأن هيِّن وأهوَنَ تقتضي صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فِعْلَ الإنسان في معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هيِّن وأهون منه ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجة ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ.. (٢١)﴾ [مريم] أي : بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خلَقْتكم من غير شيء ، فإعادتكم من شيء موجود أمر هيِّن .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١)﴾ [مريم]

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهر الحق سبحانه قدرته في الخلق وطلاقة قدرته فقط ؟ لا ، بل هناك هدف آخر ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢١)﴾ [مريم] أي : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية في الحُسْن ، آية في الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشيء الذي يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق - تبارك وتعالى - كما خلق آدم - عليه السلام - من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى - عليه السلام - من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

إذن : فهذا أمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس في أنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى في الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية ، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية في خَلْق عيسى عليه السلام أمْ في أمه ؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من أب وأم ، فالآية - إذن - في أمه ، ما هو السبب الأصيل في هذه الآية ؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليسا آيتين ؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١) ﴾ [مريم] ووجْه الرحمة في خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا في أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتي في الخَلْق من شيء ، ومن بعض شيء ، ومن لا شيء .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم] أي : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش في كيفيتها ؛ لأن الكلام عن شيء في المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأيِّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتي غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذى يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾ [مريم]

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضى الذى حدث قبل الكلام ، والمضارع الذى يحدث فى الحال ، أو فى الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً فى الماضى ، وليس كذلك فى الحاضر والمستقبل ؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضى ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخَلْق وبصفة الخَلْق خَلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة ؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة - إذن - أزلية فى الحق سبحانه ، فإذا قلت : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة فى استهلال سورة النحل : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه

الآية ، كيف يقول سبحانه (أتَى) بصيغة الماضى ، ثم يقول : ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝ ﴾ [النحل] أى : فى المستقبل ؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أتَى) فهذه قضية منتهية لا شكَّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضى وهى فى الواقع أمر مستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ ﴾

(فَحَمَلَتْهُ) أى : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضى حاملاً ومحمولاً . ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ ﴾ [مريم] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهنا ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ .. ۝ ﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عن القوم لما أحستْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝ ﴾

﴿ فَأَجَاءَهَا .. ۝ ﴾ [مريم] الفعل جاء فلان . أى : باختياره ورضَاه ، إنما أجاءه فلان أى جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذى ألجأها إلى جذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها ﴿ فَأَجَاءَهَا .. ۝ ﴾ [مريم] أى : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخـاض : هو الألم الذى ينتاب المـرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذى يسبق نزول الجنين .

وقوله : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ .. (٢٣)﴾ [مريم] أوضح لنا علَّة مجيئها إلى جـذْع النخلة ؛ لأن المرأة حينما يأتى وقت ولادتها تحتاج إلى مـا تستند إليه ، وتتشبث به ليـخفف عنها ألم الوضع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض - إذن - إلى جـذع (النخلة) ، وجاءت النخلـة مُعـرَّفة لأنهـا نخلة معلومـة معروفة .

وجذع الـنخلة : ساقـها الذى يبـدأ من الجذر إلى بداية الجـريد ، فـهل سـتتشـبث مـريم عند وضـعـها بكـــل هـذه السـاق ؟ بالطبع ستـأخـذ الجزء القريب منها فقط ، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما فى قـوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. (١٩)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبـالغةً فى كَتْم الصوت المزعج والصواعق التى تنزل بهم .

إذن : فـالسـيـدة مـريم أصـبـحت أمـام أمـر واقع وحـمل ظاهر لا تستـطيع إخفـاءه ، ولا تقدر على سـتره ، فقـد قبلتْ قـبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زكىٍّ ، وقـبلتْ أنْ تحمل به ، فكيف بها الآن وقد تحـوّل الأمـر مـن الكلام إلى الواقع الـفـعلـى ، وها هو الوليـد فى أحشائها ، وقد حان موعد ولادته ؟

لابُدَّ أن ينتابـها نزوع انفعـالى فالأمر قـد خرج عن نطاق السـتْر

والتكتّم ، فإذا بها تقول : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم] أى : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زكياً تعجبتْ قائلة : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم]

مجرد تعجُّب وانفعال هادىء ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعى شديد يُعبِّر عما هى فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموت ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمنى الموت ، كما ورد فى الحديث الشريف الذى يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت ، بل نقول : « اللهم أحْيِنى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاة خيراً لى »[1] .

وقلنا : إن تمني الموت المنهىّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد فى القرآن مسألة تمنى الموت هذه فى الكلام عن بنى إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه[2] ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة[3] ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا ردّ عليهم القرآن الكريم ؟

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٠) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٦٣٥١) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة] .

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥)﴾ [البقرة]

وقال عنهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. (٩٦)﴾ [البقرة]

وما داموا لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التى يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن - إذن - لا يجوز أن يتمنى الموت هَرباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممَّا هو فيه .

وقولها : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] النسىّ : هو الشىء التافه الذى لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَى لعدم أهميته ، كالرجل الذى نسى عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفى الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم أن تكون نسياً منسياً حتى لا يذكرها أحد .

ولم تكتف بهذا ، بل قالت : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] لأن النسىّ : الشىء التافه الذى يُنسَى فى ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسىّ بقولها (منسياً) أى : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :